الأبعاد الحضارية لأدب مصر الإسلامية

عوض الغبارى
أستاذ الأدب العربى
كلية الآداب – جامعة القاهرة

المستخلص:

يتناول هذا الموضوع الجوانب التاريخية والثقافية والفنية للأدب المصرى فى العصور الإسلامية. وتبلغ العصور الإسلامية فى مصر اثنى عشر قرنا من الزمان من الفتح العربى الإسلامي إلى نهاية العصر العثمانى سنة ١٨٠٥ م. ويتنوع الأدب المصرى خلال هذه العصور شكلا ومضمونا معبرا عن الشخصية المصرية. وأهم المعالم الفنية للأدب المصرى تصويره للروح الدينية كما تمثل عند الشاعر البوصيرى مؤسس المديح النبوى، وابن الفارض شاعر الحب الإلهى فى التصوف. كذلك برز شعر الطبيعة وتصوير النيل صانع الحضارة المصرية. وتغنى الأدباء بالبطولات التى حققها جند مصر فى موقعة حطين وموقعة عين جالوت.

وعكس الأدب المصرى موسوعية الثقافة لدى أدبائه، وحبهم للدين والدنيا تعبيرا عن الشخصية المصرية. واشتهر المصريون بحب الفكاهة، وعبر الأدب المصرى عن ذلك فى أنواع أدبية كثيرة من الشعر والقصة وغير ذلك بالفصحى والعامية. والغزل فى الأدب المصرى عذب عذوبة ماء النيل، وهو من المعالم المتميزة للأدب المصرى. ويعرض هذا الموضوع لألوان من هذا الأدب المصرى من خلال اهم أعلامه فى إطار الحضارة العربية الإسلامية والانفتاح على الحضارات والثقافات الأخرى قديما وحديثا.

The cultural dimensions of Egypt's Islamic literature

AWAD AL GHOBARY

Abstract

Addresses the historical, cultural and artistic aspects of Egyptian literature.The Islamic ages in Egypt are twelve centuries from the Islamic Arab conquest to the end of the Ottoman era in 1805. During these ages, Egyptian literature varies in form and content, expressing the Egyptian personality. The main artistic features of Egyptian literature are his portrayal of the religious spirit, as represented by the poet Al-Bousiri, the founder of Prophet's Praise. The Son of the Righteous Poet of Divine Love in Mysticism. Also, the poetry of nature and the portrayal of the Nile is the maker of Egyptian civil The Fathers sing with the tournaments achieved by the Egypt Soldier at Hattin and Ain Goliath. The Egyptian literature reflected the encyclopedia of culture and their love for religion and the world as an expression of the Egyptian character. Egyptians are known for their love of humor and Egyptian literature about it in many literary kinds of poetry, story, etc., in vernacular and vernacular. The yarn in Egyptian literature tortured the torment of Nile water and is one of the distinct features of Egyptian literature. This subject is presented in colors of this Egyptian literature through its most important flags within the framework of Arab-Islamic civilization and openness to civilizations and cultures.

مقدمة

تاريخ الأدب المصرى وفنونه شعراً ونثراً طويل يشغل اثنى عشر قرنا من الزمان منذ الفتح العربى الإسلامى لمصر على يد عمرو بن العاص في زمن الخليفة عمر بن الخطاب في السنة العشرين للهجرة (٦٤٠ ميلادية) إلى نهاية العصر العثمانى سنة (١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م) بتولى "محمد علي" حكم مصر، وبداية العصر الحديث. مروراً بعصر الولاة، لما كانت مصر ولاية تابعة للخلافة في عصور الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين إلى أن أسس "أحمد بن طولون" الدولة الطولونية سنة (٦٥٤ هـ / ٨٦٨ م)، وهي أول دولة مستقلة فى مصر وإن كانت واقعة تحت الخلافة العباسية. وتحت الخلافة العباسية الاسمية فقط، أيضا، قامت الدولة الإخشيدية في مصر على يد "كافور الإخشيدى" سنة (٣٢٣ هـ / ٩٣٤ م) وعصرها هو الذي عده "شوقي ضيف" بداية عصر الدول والإمارات، وهو العصر الذي انتهى، في تقديره، "بالعصر العثماني".[١]

ثم قامت الدولة الفاطمية في مصر سنة (٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م) وفي هذا التاريخ تأسست القاهرة، وتأسس الجامع الأزهر، على يد "جوهر الصقلى" قائد "المعز لدين الله الفاطمي" مؤسس الدولة الفاطمية في مصر . وكان الأزهر أقدم جامع وجامعة، وكان منارة للعلم، وإلى جانبه كانت أكبر مكتبة أطلق عليها "دار العلم". ولم يعتنق المصريون مذهب الدولة الفاطمية الشيعى، وقد استمر حكم الفاطميين لمصر حوالي مائتى عام ظل المصريون خلالها على مذهبهم السنى المعتدل اتساقا مع الشخصية المصرية بروحها العربية الإسلامية السمحة.

ثم قامت الدولة الأيوبية في مصر على يد صلاح الدين الأيوبى سنة (٥٦٧ هـ / ١١٧١م) وقد حقق النصر المبين على الصليبيين، عام (٥٨٣ هـ / ١١٨٧م) محررا بيت المقدس من براثنهم بفضل جند مصر الذين هم خير أجناد الأرض لأنهم في رباط إلى يوم القيامة كما قال رسول الله (ص) .[٢]

وفي عام (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م) قامت الدولة المملوكية التي حكمت مصر إلى سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م). وقد حقق "الظاهر بيبرس" النصر على التتار في "عين جالوت" بقيادة "قطز" عام (٦٥٨هـ / ١٢٥٩م). وأخيرا قامت الدولة العثمانية من سنة (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) إلى سنة (١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م). وهذه العصور الطويلة شهدت عطاءات مصر أدبيا وعلميا وثقافيا وحضاريا، حيث كانت مصر منارة الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة بينما كانت أوروبا غارقة في ظلمات العصور الوسطى.

كان العلم العالمى عربيا لمدة خمسة قرون على الأقل؛ من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، إلى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى. وقد حفظت اللغة العربية العلوم المختلفة التي استنارت بها أوروبا لنهضتها في العصر الحديث.

ولم يكن المدى الزمنى الواسع – فقط – هو مكمن صعوبة تناول هذاالموضوع، ولكن يضاف إلى هذا التنوع الهائل لحركة الأدب المصرى في تلك العصور من فنون شعرية ونثرية، وبروز الشخصية الأدبية المصرية من خلال أعلام كبار تميزوا في الأدب الديني والفكاهى خاصة تعبيرا عن هذه الشخصية المصرية التي تتسم بالتدين العميق في إهاب حب الحياة والمرح والفكاهة. والتجديد الديني كان هاجس علماء مصر، وقد أسهموا فيه بقسط وافر، كالسيوطى الذي قدم اجتهادات واسعة في

علوم القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والدراسات الإسلامية المختلفة.

والبوصيرى هو شاعر المديح النبوى، وابن الفارض هو شاعر الحب الإلهى، وقد كان ذو النون المصرى هو مؤسس التصوف الإسلامى. وكانت مصر موئل العلم والعلماء الذين قدموا الموسوعات العظيمة في كل علم وفن، عوضا عن ذخائر الكتب العربية التي دمرها التتار بعد سقوط بغداد.

١ – البعد الدينى لمكانة مصر

عن الكندى أخذ السيوطى في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ، "قوله: لا يُعلم بلد في أقطار الأرض أثنى الله عليه فى القرآن بمثل هذا الثناء، ولا وصفه بمثل هذا الوصف ولا شهد به بالكرم غير مصر".

على أرضها كلَّم الله موسى وأقبل عليها عيسى، وقد أشار القرآن الكريم إلى دخول عيسى بن مريم وأمه مصر فى قوله تعالى : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ .

أصبحت مصر بعد ذلك حصن الإسلام، وقد أقبل عليها قبل ذلك إبراهيم وتزوج هاجر المصرية التي ولدت إسماعيل أبا العرب، وعلى رأسهم قريش التي شرفت بانتساب الرسول –ص– إليها. وقد هبط يوسفُ مصر مبعوثًا حمله الله إلى مصر ليتعلم فيها ، وقد كانت مهدًا للعلم منذ أقدم العصور.

وقد ذكر القرآن الكريم على لسان فرعون قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فقد تصور – فرعون – وقد ضل وغوى أنَّ ما وعده موسي من فردوس الآخرة لا يزيد على ما لديه من مُلك ، فأرسل تساؤله متعجبًا مستنكرًا عما يبشر به من جنات تجرى من تحتها الأنهار وعنده مصر جنات تجرى من تحتها الأنهار.

ذكر الكندى فى فضائل مصر ما يعجب من رونق منظرها راويًا عن كعب الأحبار أنه قال: "من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا أخرفت وإذا أزهرت وإذا اطردت أنهارها وتدلت ثمارها وفاض خيرها وغنت طيرها".

وأورد الكندى ما ذُكر في الكتاب والسنة من فضل النيل، وذكر وصف عمرو بن العاص له عندما طلب منه الخليفة عمر بن الخطاب أن يصف له مصر فقال عنه : "يخط فيه نهر مبارك الغدوات، ميمون البركات، يسيل بالذهب، ويجرى بالزيادة والنقصان كمجارى الشمس والقمر".

٢ – البعد الحضاري

نهضت مصر بأقدم دور في تاريخ الحضارة الإنسانية ، فمنها تلقت الأمم القديمة هندسة البناء كما تشهد بذلك أهراماتها الشامخة، كما أُخذِت عنها فكرة الكتابة ونقش الحروف، فكان لها فضل كبير في بث المعرفة، وأعدها النيل على يد عمرو بن العاص في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لتكون أستاذة الأمم في العناية بالزراعة. وقد فتح العرب مصر سنة عشرين للهجرة فعمها الإسلام بنوره، وأظلتها الحضارة الإسلامية بقيمها الإنسانية الرفيعة، وخلَّصها عدل الإسلام من جور الهكسوس والفرس والروم الذين استولوا عليها في التاريخ القديم، وساموا أهلها سوء العذاب، فلم يفتح العرب المسلمون مصر عنوة، بل وجد المصريون ما يكفل لهم حريتهم الدينية ، وكرامتهم الإنسانية . ومنذ ذلك

الحين أخذت مصر تتعرَّب، وتبنى المساجد منذ أن أنشأ عمرو بن العاص مسجده في القاهرة. ثم خلفه الطولونيون وأسس أحمد بن طولون في مصر أول دولة مستقلة عن الخلافة العباسية ٢٥٤ هـ، وازدهرت هذه الدولة ازدهارًا كبيرًا بفضل ما عرف عن أحمد بن طولون من احتفاله بالعلماء والأدباء ، ومن عنايته بالدين، ومن قوته السياسية. ووليه كافور الإخشيدى مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر التي امتد عطاؤها إلى أن قامت الدولة الفاطمية سنة ٣٥٨هـ التي بنى فيها جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى القاهرة والجامع الأزهر. وكان الجامع الأزهر المبارك (أقدم جامع وجامعة دليلا على سماحة المصريين وعدم تشيعهم مع حبهم لآل البيت).

عرفت مصر الوحدانية وتجلت شخصيتها الدينية منذ العصور الفرعونية إلى اليوم حيث تداخلت حضاراتها المختلفة، وتفاعلت مع الحضارات الأخرى بثقافة عطاء وبقاء ارتبطت بالوطن وبنهر النيل.

والشخصية المصرية معتدلة اتساقًا مع وسطية الإسلام؛ شخصية النيل التي جسدت دورًا حضاريًا إنسانيًا بارزًا في تاريخ الإنسانية.

وقد حافظت مصر على شخصيتها المستقلة زمن الفاطميين ، وكان الجامع الأزهر مكملاً لجامع عمرو بن العاص مصدرًا للإشعاع الروحى والمعرفى.

ومن مصر انتشرت السيرة النبوية ، وساير علماؤها مناهج التجديد والاجتهاد في كل عصر وفي كل علم وفن.

وأسس ذو النون المصرى التصوف العربى الإسلامى، وتوّجه ابن الفارض شاعر الحب الإلهى وسلطان العاشقين. ووضع البوصيرى أسس المدائح النبوية إلى العصر الحديث، وقد أشاد ابن خلدون بابن هشام المصرى الذي قيل إنه أنحى من سيبويه.

وقيل إن فقيه مصر الليث بن سعد أفقه من الإمام مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به، أي لم ينشروا علمه.

وكان فى مصر أعظم المكتبات مثل دار الحكمة أو دار العلم.كما أن لمصر حضارتها العظيمة التي تعبر عنها آثارها الباهرة. وقد حرَّر جند مصر، الذين هم خير أجناد الأرض بيت المقدس، وحققوا مع صلاح الدين الأيوبى أكبر نصر على الصليبيين في حطين. وأعادوا الكرة على التتار فى عين جالوت مع الظاهر بيبرس . وحفظ علماء مصر العلوم والفنون ، خاصة فى العصر المملوكى، وألفوا الموسوعات الكبرى بعد ضياعها على يد التتار، عند سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ.

واتسق التأليف الموسوعى فى مصر مع المفهوم الواسع للأدب من حيث الأخذ من كل علم بطرف.

والعمارة الإسلامية فى مصر هي نتاج حضارى باذخ لهذه العصور الإسلامية التي شهدت الحقبة الأخيرة منها فى العصر العثماني بواكير النهضة الحديثة.

الأدب المصرى

شهد الأدب المصرى عطاءات فنية واسعة في العصور الإسلامية. وقد اتسم بالتنوع والثراء كاشفًا عن الشخصية المصرية، وأثر مصر /المكان/ والنيل فى خصوصيتها كما أبرزه الشيخ أمين

الخولى فى دعوته الرائدة إلى الاهتمام بالأدب المصري أدبًا قوميًا، وجمال حمدان فى موسوعته:الشخصية المصرية.

يعبّر نص فى خزانة الأدب عن طبيعة الأدب المصرى ورد فيه أن البهاء زهير الشاعر المصرى أنشد شطرًا هو :

يابان وادى الأجرع

وطلب من ابن سعيد الأندلسي صاحب كتاب المُغرب في حُلي المغَرِب أن يكمله فقال ابن سعيد:

سُقيت غيث الأدمع

فقال البهاء: الأقرب إلى الطريق الغرامي أن تقول:

هل ملت من طرب معي

فالغزل المصرى عذب وجدانى رقيق سلس.

وقد شدت أم كلثوم من أبدعه بقصيدة ابن النبيه المصري:

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيَّعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

التي يقول منها:

من لم يَذُق ظلم الحبيب كظلمه حلوا فقد جهل المحبة وادَّعى
يا أيها الوجه الجميل تدارك الصب النحيل فقد وهى وتضعضعا
هل فى فؤادك رحمة لمتيم ضمت جوانحه فؤادًا موجعا
هل من سبيل أن أبث صبابتي أو أشتكي بلواى أو أتضرعا

كما غنَّت من شعره ، أيضًا ، قصيدة:

أمانا أيها القمر المطلّ فمن جفنيك أسياف تُسلّ
يزيد جمال وجهك كل يوم ولى جسد يذوب ويضمحل

وهو غزل يقترب فى سهولته من لغة الناس في حياتهم اليومية، كما فى قول البهاء زهير:

من اليوم تعارفنا ونطوى
ولا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا
وإن كان ولا بد من العتب فبالحسني
فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنَّا
كفى ما كان من هجر وقد ذقتم وقد ذقنا
وما أحسن أن نرجع للوصل كما كنا

والغزل الوجدانى الرقيق رمز للتعبير عن الحب الإلهى في الشعر الصوفى لابن الفارض الذى يقول:

وعن مذهبى في الحب مالى مذهب وإن ملت يومًا عنه فارقت ملتي

وكذلك الخمر الرمزية فى قوله:

شـــربنا علـــى ذكـــر الحبيـــب مدامـــة سكرنا بهـــا مـــن قبـــل أن يخلـــق الكـــرم

وقد شهد وحدة الوجود فى قوله :

وكـــل الـــذي شـــاهدتُه فعـــلُ واحـــد بمفـــــرده لكـــــن بحجـــــب الأكنـــــة

وما أبدع قوله :

مـــا بـــين معتـــرك الأقـــداح والمُهَـــج أنـــا القتيـــل بـــلا إثـــم ولا حـــرج

ويفيض ابن الفارض وجدًا بفلسفته الصوفية فى وحدة الشهود، والرمز فى قصيدته التائية الكبرى، حيث تتجلي صفات الذات العلية فى بديع صنعه. والتجلى الإلهى هو الوجود الحق فى عالم الخلق:

وطاح وجودى فى شـــهودى وبنـــت عـــن وجـــود شـــهودى ماحيـــا غيـــر مثبـــت

وعانقت ما شـــاهدت فـــى محـــو شـــاهدي وذاتـــــى بـــــذاتى إذ تجلّـــــت تجلّـــــت

إذ يتجلى الله عبر ظواهر مخلوقاته فيكشف بذاته عن ذاته، فلا يوجد شىء سواه.

والمقامات والأحوال الصوفية ماثلة فى قول ابن الفارض:

قلبـــــي يحـــــدثنى بأنـــــك متلفـــــي روحـــى فـــداك عَرَفْـــتَ أم لـــم تَعْـــرِفِ

أما بردة البوصيرى التي شدا بها المسلمون على مر العصور فهى ترنيمة حب فى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول منها:

محمد سيد الكـــونين والثقلـــين والفـــريقين والفـــريقين مـــن عُـــرب ومـــن عجـــم

هـــو الحبيـــب الـــذى ترجـــى شـــفاعته لكـــل هـــول مـــن الأهـــوال مقـــتحِم

دعـــا إلـــى الله فالمستمســـكون بـــه مستمســـكون بحبـــل غيـــر منفصـــم

وفى فضل الرسول يقول:

فـــاق النبيـــين فـــي خَلـــق وفـــي خُلُـــق ولـــم يـــدانوه فـــي علـــم ولا كـــرم

وكلهـــم مـــن رســـول الله ملـــتمس غرفًا مـــن البحـــر أو رشـــفًا مـــن الـــدِّيَم

وفى مولده "صلى الله عليه وسلم" يقول البوصيرى:

أبـــان مولـــده عـــن طيـــب عنصـــره يـــا طيـــب مبتـــدأ منـــه ومختـــتم

وفى معجزة الإسراء والمعراج يقول:

ســـريت مـــن حَـــرمٍ لـــيلاً إلـــى حَـــرَم كمـــا ســـري البـــدر فـــى داج مـــن الظلـــم

وهو ما يؤكد عمق الروح الديني فى الشعر المصرى، وخصوصيته فى فن البديع، وقد أصّلها أسلوبيًا ابن أبي الإصبع المصرى في كتابيه : تحرير التحبير وبديع القرآن . كما يستلهم الأدب المصرى من بلاغة القرآن المثل الأعلى في فن الأدب.

والشاعر المصرى محب لطبيعة مصر يرمز بها إلى السلام والحب، ويتعزى بها عن تقلبات الأيام، ومخاطر الاشتغال بالسياسة ، يقول ابن وكيع التنيسى:

وإن أتـــوك فقـــالوا كـــن خليفتنـــا فقـــل لهـــم إننـــى عـــن ذاك مشـــغول

فـــإن ذلـــك أمـــر مـــعْ نفاســـته ونبلـــه بفنـــاء العمـــر موصـــول

وقد رثا شعراء مصر زوال الدولة الطولونية قبل رثاء الشعراء الأندلسيين للدول والممالك ، فللشاعر "سعيد القاص" قصيدة طويلة فى ذلك مطلعها:

جري دمعـه مـا بـين سَـحْر إلـى نحـر ولـم يجـر حتـى أسـلمته يـد الصـبر

مما تجلى بعد ذلك مثل قول الشاعر الأندلسى عند زوال الدولة العربية في الأندلس:

الـــدهر يفجـــع بعـــد العـــين بـــالأثر فمـــا البكـــاء علـــى الأشـــباح والصُّـــور

وقد كانت الطبيعة ملاذ الشعراء الذين خذلتهم السياسة كشاعر مصر الأكبر في العصر الفاطمى؛ تميم بن المعز، إذ يجعل النيل في شعره تعبيرًا عن تمرده لصرف أبيه له عن ولاية مصر، فيقول:

انظـــر إلـــى النيـــل قـــد عبَّـــا عســـاكره مـــن الميـــاه فجـــاءت وهـــى تســـتبق

كـــأنَّ خلجانـــه والمـــاء يأخـــذها مـــدائنٌ فتحـــت فاحتازهـــا الغـــرق

فماء النيل جيوش هادرة تحقق النصر الذى لم يستطعه الشاعر فأسقط على النيل أحاسيسه بالظلم الذى وقع عليه.

وتميم بن المعز لدين الله الفاطمى مؤسس الدولة الفاطمية التى حكمت مصر قرنين من الزمان انطلق معبرًا فى شعره عن حب الحياة والطبيعة المصرية، يقول في مصر:

فـــى جنـــة قـــد ذلّلـــت ثمراتهـــا وتسربـــلت بغلالـــة مـــن نـــور

ويقول فى رقة الغزل وعذوبته:

يـــا قـــومِ مـــا بـــالُ ظلامـــا تِنـــا فـــي الحـــب لا ينظـــر فيهـــا القضـــاه

فتمنـــع المحبـــوبَ مـــن زهـــوه وتُنصـــف العاشـــق ممـــن جفـــاه

وعلى ذلك لم يغل شعراء مصر فى استخدام مصطلحات المذهب الفاطمي الذى حاولت الدولة إقراره بسيف المعز وذهبه، من مثل قول الشاعر فى مدح الخليفة الفاطمى:

مـــا شـــئت لا مـــا شـــاءت الأقـــدار فـــاحكم فأنـــت الواحـــد القهـــار

ولكن المصريين – مع الفاطميين – أحبوا آل بيت الرسول – صلى الله عليه وسلم – واحتفلوا بالمناسبات الدينية احتفالات خاصة تعبر عن شخصيتهم المحبة للدين والدنيا معا.

وعبَّر شعراء مصر عن حبهم للوطن مثل ظافر الحداد؛ شاعر الإسكندرية التى ألهمته أروع شعره عند فراقها :

أقصـــاه جـــور البـــين عـــن أحبابـــه وزمانـــهِ وبـــلادهِ وشـــبابهِ

فبكـــى ومـــا يغنـــى البكـــاءُ وإنمـــا هـــى روحـــه تنهـــلّ فـــي تســـكابِه
حيـــث النســـيمُ الســـاحلى يـــزوره ونـــدى ريـــاض الرمـــل عطـــرُ ثيابـــه
رشـــفَتْ ثنايـــا الثغـــر أفـــواهُ الصَّـــبا أصُـــلا وبرَّدهـــا النَّـــدى برُضـــا بـــه

أما ابن وكيع التنيسى فهو ابن تنيس التى كانت تقع مكان بحيرة المنزلة بين دمياط وبورسعيد. وقد أثَّرت طبيعتها الجميلة في خياله الشعري، وزخرفتهِ لشعره متأثرًا باشتهار مدينته بفنون من صناعة النسيج وهو شاعر الربيع، يقول فيه:

هـــذي الريـــاض كـــأنهن عـــرائس يختـــتلن بـــين تمايـــل وتبختـــر
ورد كوجنـــة كاعـــبٍ قـــد موزحـــت فتراجعـــت خجلـــي بفـــرط تحيُّـــر
والنـــرجس الريـــان بـــين رياضـــه يرنـــو بعـــين الباهـــت المتحيـــر

وشخصية ابن وكيع المصرية تتجلي في شعره ، خاصة المربعة الغزلية، ومطلعها:

رســـالة مـــن كَلِـــف عميـــد حياتـــه فـــي قبضـــة الصـــدود
بلّغـــه الشـــوق مـــدي المجهـــود مـــا فـــوق مـــا يلقـــاه مـــن مزيـــد

وهو إلى ذلك عالم ناقد للشعر فى كتابه : "المنصف في نقد شعر المتنبى ، وبيان سرقاته"، وإن كان متحاملاً على المتنبى، حتى قيل ما أبعد المنصف عن الإنصاف.

وفي تنيس يقول الشاعر "أبو حامد بن محمد" مفتوناً بها:

لَيْلـــى بتنـــيس ليـــل الخـــائف العـــاني تفنـــي الليـــالي ولَيْلـــى لـــيس بالفـــاني
ســـقيا لليلتنـــا بالـــدَّيْر بـــين ربـــي باتـــت تجـــود عليهـــا ســـحْب نَيْســـان
ليـــالىَ النيـــل لا أنســـاك مـــا هتفـــت ورق الحمـــام علـــى دوحٍ وأغصـــان

أما الشريف العقيلي فهو شاعر جامح الخيال، نواسي الخمريات ممتزجة بالحب والطبيعة:

ولنـــا عجـــوز عهـــدها عهـــد بعيـــدٌ بالشـــباب
عنبيـــة أفعالهـــا فـــى معـــزل عـــن كـــل عـــاب
عـــذراءُ كالعـــذر الـــذي يقتـــاده حـــادي العتـــاب

ويقول:

اشـــرب علـــى النـــار التـــى جـــاءت بهـــا والصـــبح يقـــبض مهجـــة الظلمـــاء
هيفـــاء ناعمـــة الشـــباب كأنهـــا مخلوقـــة مـــن بهجـــة وضـــياء

ويرتبط الشعر المصرى بالحروب الصليبية، وهناك ديوان كبير في تصويرها هو ديوان القدسيات شعرا ونثرا، وقد كان صلاح الدين الأيوبى القطب الذي دار حوله هذا الديوان.

كان الجهاد مفتاح حياته، وقال لجنوده : "لا تظنوا أنى فتحت البلاد بسيوفكم وإنما فتحتها بقلم

القاضي الفاضل" إشارة إلى إجلاله للعلماء والأدباء، وكان القاضي الفاضل وزيره.

وأجَّل صلاح الدين الصوفية ، وقال : "إنما نصرت بضعفائكم" وقد بنى لهم الزوايا تبركا بهم.

وأشهر شاعر مصري مدحه هو ابن سناء الملك، شاعر العصر الأيوبى، وأنبه شعرائه وله قصيدة تناص فيها مع أبى تمام، قال ابن سناء الملك في مطلعها:

بدولـــة التـــرك عـــزت ملـــة العـــرب وبـــابن أيـــوب ذلـــت شـــيعة الصـــلب

وقد التقي بقصيدة أبى تمام الشهيرة:

السـيف أصـدق أنبـاء مـن الكتـب فـى حـده الحـد بـين الجـد واللعـب

وقد تعلم أبو تمام البديع وفنونه فى مصر حتى أصبح علمًا عليه، وعمادًا ارتكن إليه أدباء مصر فيما بعد. ولابن سناء الملك دور كبير فى وضع موسيقى الموشح فى كتاب له عنوانه: دار الطراز، وأهميته فى ذلك كأهمية الخليل بن أحمد فى وضعه لعروض الشعر العربى.

وقد جدَّد ابن سناء الملك موسيقى الشعر العربى فى موشحاته الرائعة مثل قوله:

أري نفســـــى لقلبـــــى واهبـــــه ولـــم تحفـــل بحســـن العاقبـــه

فأحـــداق المهـــا

أشـــــــارت بـــــــالغرام وعصـــــــيان المـــــــلام

فقالـــــــت مهجتـــــــي نعـــم يـــا منيتـــي نعـــم أنـــت التـــي

بهـــا دار الهـــدى دار النعـــيم ومـــن أســـقامها بُـــرء الســـقيم

أتـــاني اللـــوم فـــيهم ثـــم زال وصـــاد جـــوانحى مـــنهم وصـــال

غـــزالٌ منـــه يغتـــاظ الغـــزال ومنـــه نالـــه ذاك الهـــزال

وشـــمس الأفـــق منـــه شـــاحبه وقـــد يغنيـــك عنهـــا غايبـــه

وينسيك اسمها

كـــذا بـــدرُ التمـــام تـــراه بالسَّـــقام

كئيـــب الوجنـــة كثير الكُلفة قليـــل البهجـــةِ

وتحســـب أنَّ عرجونـــا قـــديم كغصـــنٍ فـــى غلائلـــه قـــويم

ســـقاني مـــن أناملـــه بكـــاس وحيَّـــا مـــن عِذاريـــه بـــآس

ومـــاس فغـــاب عنـــي كـــلَّ يـــاس وبـــى مـــا غـــاب عنـــه أبـــو نـــواس

والموشح ممثل للتجديد والابتكار الأصيل الجميل، وكذلك موشحه:

أهـــوى قمـــر أحـــوى أغـــر حلـــو الرُّضـــاب ألمـــي

وعـــــــاذلى لمـــــــا نهـــــــي عـــــــن التصـــــــابى أعمـــــــي

وننتقل إلى العصر المملوكى مع أكبر شعرائه ، وهو ابن نباتة المصرى الذى يمثل شعره علامة بارزة فى التناص مع الشعر العربى بثقافته المصرية وحضارته العربية الإسلامية، فالشعر العربى حلقات متواصلة من الإبداع ، يقول ابن نباتة:

وقصـــــيدة غـــــرَّاء تُعلـــــم أنـــــه قـــد غـــادر الشـــعراءُ مـــا يتـــردمُ

وله تناص رائع من امرئ القيس، يقول ابن نباته منه:

فطمـــت ولائـــى ثـــم أقبلـــت عاتبًـــا أفـــاطم مهـــلاً بعـــض هـــذا التـــدلل

فِداك ســهادى فــى الــدجى مــن مــودة نؤومِ الضــحي لــم تنتطــق عــن تفضــل

ولا تنس منـــى صـــحبة تصـــدع الـــدجي بصـــبح ومـــا الإصـــباح منـــك بأمثـــل

وعـــادات حُـــب هـــن أشـــهر فيـــك مـــن قفـــا نبـــك مـــن ذكـــري حبيـــب ومنـــزل

ومن القرآن الكريم يستلهم ابن نباتة قوله:

إنســـان عينـــى ســـاهر بـــك ســـافح يـــا أيهـــا الإنســـان إنـــك كـــادح

وقوله:

خليلـــى عـــن حـــال المحبـــين ســـل فمـــا ينبيـــك بـــالأحوال مثـــل خبيـــر

وما أجمل قوله:

أهـــوى بمرشـــفه الشـــهى وقـــال هـــا ويـــلاه مـــن رشـــأ أطـــاع وقالهـــا

وأمالـــت الكاســـات معطـــف قـــدّه بقصـــاص مـــا قـــد كـــان قبـــل أمالهـــا

وظفـــرت فـــى اليقظـــات منـــه بخلـــوة مـــا كنـــتُ آمـــل فـــى المنـــام خيالهـــا

ياليـــت أرض العـــاذلين تزلزلـــت أوليتهـــا لا أخرجـــت أثقالهـــا

وفى المديح النبوى يقول ابن نباتة مستلهما كعب بن زهير:

مـــا الطـــرف بعـــدكُم بـــالنوم مكحـــول هـــذا وكـــم بيننـــا مـــن ربعكـــم ميـــل

فـــى ذمـــة الله قلـــبٌ يـــوم بَيْـــنَكُمُ مـــوزّعٌ ودمٌ فـــى الحـــب مطلـــول

بانـــت معـــاذير عجـــزي عـــن بانـــت ســـعاد فقلبـــي اليـــوم متبـــول

ويتبدى الروح المصري الفكه في قول ابن نباتة:

إذا جـــاء عثمـــان مســـتخبرًا عـــن المتقـــارب بحـــرا فقولـــوا

ثقيـــل ثقيـــل ثقيـــل ثقيـــل ثقيـــل ثقيـــل ثقيـــل ثقيـــل

وأدار ابن نباتة حواراً رائعًا مع المتنبى وأبى تمام قائلاً :

قالت دمشق بدمع النهر وأخبرا فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
وكلمتنا سيوف الكُتب قائلة ما السيف أصدق أنباء من الكتب

وقد أبدع ابن نباتة في قوله البليغ:

على مثل هذا عاهد الدهر أهله وصال وتفريق يسر ويؤلم
وإن مُنعِ الغُيَّاب أن يقدُموا لنا فإنا على غُيَّابنا سوف نقدُم

ليؤكد شاعريته ، وتعبيره عن تفاعل الأدب المصرى مع روائع الشعر العربي.

وتمثل التورية عمادًا مهمًا وركنًا ركينًا في الأدب المصرى من مثل قول الشاعر:

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة دعونى فإنى آكل العيش بالجبن

وقد أشاد "الصفدى" في كتابه : "فض الختام عن التورية والاستخدام" بالتورية في الأدب المصرى قائلا عن الأدباء المصريين إنهم شربوا ماء النيل، وهو أحد أنهار الجنة، وترشفوا حلاوة لا تكون في حشا القطر مستجنة... ومن عذبت قطرات مياههم لطفت كلمات شفاههم، وإذا كانوا قد نشأوا في حلية الحلاوة، تَنَّوا في المحاورة طلية الطلاوة ، كما قال فيهم المغربي على بن سعيد، وما هو منهم ببعيد:

أيا ساكني مصر غدا النيل جاركمُ فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعر
وكان بتلك الأرض سحر وما بقي سوي أثر يبدو على النظم والنثر

وباب الفكاهة في الأدب المصري حافل بالتعبير عن الشخصية المصرية المحبة لها.

وأهم ديوان فكاهى هو ديوان "نزهة النفوس ومضحك العبوس" لا بن سودون قائمًا على المفارقة بين الجد والهزل، كقوله :

عجب عجب هذا عجب بقرا تمشي ولها ذنب
لا تغضب يومًا إن شُتمت والناس إذا شُتموا غضبوا
من أعجب ما فى مصر يُري الكرم يُرى فيه العنب
والنخل يُرى فيه بلح قالوا ويرى فيه رُطَب
والمركب مع ما قد وسقَت في البحر بطرف تنسحب
الناقة لا منقار لها والوزة ليس لها قتب

وابن سودرن كان شيخ جامع بأوسيم التى يشير إليها بقوله:

أوسيم بها البرسيم

دالاً على المرح المصري ترويحًا عن النفس ، وتنفيسًا عن المكبوت من الشدائد التي واجهها المصريون على مر الزمان.

ومن فكاهاته الرائعة قوله:

البحـــر بحـــر والنخيـــل نخيـــل والفيـــل فيـــل والـــزراف طويـــل
والأرض أرض والســـــماء خلافهـــا والطيـــر فيمـــا بيـــنهن يجـــول
وإذا تعاصـــفت الريـــاح بروضـــة فـــالأرض تثبـــت والغصـــون تميـــل

ويشبه هذا ظرف الشاعر الذي قال:

كأننـــا والمـــاء مـــن حولنـــا قـــوم جلـــوس حـــولهم مـــاء

ومن مفارقات ابن سودون أيضًا :

خـــذوا منـــي الغرائـــب واســـمعوني لأخبـــركم عـــن العلـــم المصـــون
ألا ياناـــاس فـــي بـــولاقَ أشـــيا إذا حـــدثتُ عنهـــا صـــدّقوني
إذا طلعـــت عليهـــا الشـــمس يومًـــا رآهـــا النـــاس فيهـــا بـــالعيون

وترد هذه الطرفة فى معرض وصف الحج، مفارقًا لروحانيته:

من رافق النـــاس عنـــد الحـــج إذ رحلـــوا وســـار فـــى الرَّكـــب مـــن واد إلـــى واد
رآهـــمُ يشـــربون المـــا إذا عطشـــوا ويـــأكلون إذا جـــاعوا مـــن الـــزاد

إنها الشخصية المصرية متميزةً بالمرح ودقة التفطن وسرعة الخاطر وحضور البديهة والقدرة على لطف التصوير والتخيل.

وللأدب الشعبي فنون كثيرة في الأدب المصري كالزجل، ورائده في الأدب المصري الشيخ خلف الغبارى الذى أشعر بالشرف لانتسابى إليه اسما.

وزجله مرتبط بالحياة المصرية ، معبر عنها بآلامها وآمالها لغة وفكرًا وثقافة .

برع الشيخ الغبارى فى الزجل وقد جمعتُ ديوانه ، وقدمته، وأهمه فى الحكمة زجل رائع منه:

فـــى النـــاس رأينـــا للخيـــر معـــادن والـــدر يوجـــد فـــي كنـــز مثلـــه
وإن رُمـــت جـــوهر الشـــخص مكنـــون فجـــوهر الشـــخص حســـن فعلـــه
وإن كـــان تريـــد صـــحة المعـــاني وشـــرح مـــا فـــى البيـــان محـــرَّر
خـــد فـــرع بيـــدك مـــن أصـــل حنظـــل وازرع جـــذوره فـــى أرض عنبـــر
واســـقيه بمـــاء ورد ممـــزوج وعقـــد جُـــلاب وحَـــلِّ سُـــكَّر
وحـــين تشـــوفه عقَـــدَ ثمـــاره وآن أوانـــه وحـــل فصـــله
ذوقـــه تـــراه مـــر والســـبب فيـــه مـــا يرجـــع الفـــرع إلا لأصـــله

والغبارى في الزجل لا يُشَقُّ له غبار، أو كما يقول هو :

وأهـــل الفنـــون تجـــرى ومـــا تلحـــق للغبـــارى غبـــار

وقد تغنى المصريون بأزجال الغباري في الأفراح وغيرها وهو بارع في ابتكار الصور الشعرية، يقول:

روح النســـيم لمـــا ســـرت فـــي جســـم روض هـــذا الوجـــود
عـــاش بعـــد موتـــه وانـــتعش واتمايلـــت فيـــه القـــدود
وقـــد حكـــى الرمـــان نهـــود لمـــا حكـــى التفـــاح خـــدود
والنـــرجس أحداقـــه حَـــوَت فتـــور ولـــيس فيهـــا فتـــوك
والغـــيم بكـــى طرفـــه وقـــد أضـــحى الإقـــاح سِـــنَّه ضـــحوك

ولما كان من معنى الزجل "صوت الطيور" فقد غرد الغبارى بأزجاله في الأفق البعيد.

أما العصر العثماني فقد عكس حياة المصريين وقد ازدهر التصوف فيها . وكان الإمام الشعرانى متصوف العصر. وهناك رحلة حج للشيخ عبد الغنى النابلسى عَبَر فيها من الشام إلى الحجاز عبر مصر وسجل رحلته في كتاب بعنوان : "الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز".

وقد صوَّرت هذه الرحلة الحياة الثقافية والأدبية في مصر في أواخر العصر العثمانى مما يعد نهوضا من التخلف ، وإستشرافا للعصر الحديث.

وكان الشيخ زين العابدين البكرى شيخ السادة البكرية ممثلاً للنفوذ الكبير للمتصوفة فى العصر العثمانى . وقد ذكر النابلسى أن الشيخ زين العابدين البكرى خمَّس قصيدته ومطلعها:

أيهـــا النـــاى عنـــدك الخبـــر لـــيس لـــلأذن عنـــك مصـــطبر

وهي قصيدة صوفية مصورة لمواجد الصوفية وأحوالهم ومقاماتهم ، حيث خمَّس الشيخ زين العابدين هذا المطلع بقوله :

ذُكـــر الـــوتر فـــانثنى الـــوتر ومـــن الصُّـــور تُبعـــث الصُّـــوَر
فســـلوا الزَّمْـــرَ عنـــه يـــا زُمَـــر أيهـــا النـــاي عنـــدك الخبـــر

ليس للأذن عنك مصطبر

وكانت المخمسات فنًا رائعًا يتبادله الشعراء بحرفية وشاعرية فائقة.

وقد أطلعنا "النابلسى" على صور فريدة من الحياة الأدبية والفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية في مصر العثمانية .

البعد الفكرى والبلاغى والنقدى

للأدب المصرى

السيوطى مثال مهم للمؤلفات الموسوعية في مصر، وكان كالجاحظ في العصر العباسى، وقد جدَّد الكثير من العلوم فى الدراسات الإسلامية واللغة العربية وآدابها. فله في علوم القرآن الإتقان وهو

من سلسلة الكتب الذهبية فى بابه، وهو عالم الحديث فى كتابه "جمع الجوامع" أو الجامع الكبير، وهو أهم كتاب موسوعى في السنة النبوية.

وله كتبه المهمة فى النحو واللغة ، وفى التاريخ وغير ذلك. وكانت الموسوعات العظيمة قد ألفت فى مصر مثل لسان العرب لابن منظور، ونهاية الأرب فى فنون الأدب للنويري، وخطط المقريزى وغيرها كثير فى العلوم والفنون المختلفة.

وكان السيوطى ذا شخصية علمية متفردة، سعى إلى التجديد ، وألف فى ذلك كتابا بعنوان: "الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أنَّ الاجتهاد فى كل علم فرض".

وكانت حركة العلم فى مصر زاهرة إذ قال ابن بطوطة إن المدارس بمصر لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها.

وللسيوطى مقامات عددها ثلاثون عبَّرت عن ذاته ، وارتباطه بقضايا مجتمعه وشخصيته الموسوعية والأدبية المصرية.

وقد اتصلت سيرته الذاتية "التحدث بنعمة الله" بهذه القيم الأدبية والإنسانية ، حيث كانت شخصية السيوطى مثالا لشخصية العالم العامل الذى تحققت فيه مزايا العلماء الذين أدَّبهم علمهم.

وكان للسير الشعبية في الأدب المصرى حظ كبير ، فإلى جانب انتشار السيرة الهلالية وسيرة عنترة في مصر، وضع المصريون سيرة عظيمة للظاهر بيبرس بطل "عين جالوت". كما يغلب أن تكون سيرة "سيف بن ذي يزن" قد ألفت بمصر فى القرن الثامن أو التاسع للهجرة، كما أضافت مصر إلى كتاب الف ليلة وليلة قصصًا متنوعة. وكان العطاء الإبداعى المصرى مواكبًا لدور ثقافى حضارى متمثل فى تأليف الموسوعات المصرية التي تعد مصدر الدراسات الأدبية واللغوية والعلمية في سياق حضاري ثقافي علمي برز فيه دور علماء مصر في حركة الحضارة والثقافة العربية الإسلامية.

وازدهرت كتابة التاريخ بفعل الدور التاريخى العظيم لمصر في التاريخ العربى الإسلامي بدحر جنودها للصليبيين والتتار خاصة.

وكان شعراء مصر وأدباؤها علماء توسعوا فى المعرفة وثقفوا معارف متنوعة، وانفتحوا على التراث الثقافي لغير العرب من يونان وفرس وهنود وغيرهم.

وكان بمصر الكثير من الأنبياء مثل إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ويوسف، وكانت قبلة الكثير من الصحابة والأولياء والعلماء والأدباء، مما أثر فى أخلاق أهلها، وحدا بهم إلى تعميق حضارتهم في إهابها العربى الإسلامى .

وقد درست خصائص البلاغة والنقد فى التراث المصري في العصور الإسلامية التى عبَّر عنها السبكي بقوله: "أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالي عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم، أكسبهم النيل تلك الحلاوة فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء فضلا عن الاغمار الأعمار، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الأستار".

فقد نظر النقاد المصريون إلى الشعر قائما على أسس أدبية تحقق وظائف فنية أخلاقية إنسانية. وقد نهجوا فيه نهجا عربيا أصيلا عبَّر عنه السيوطي بأنه على طريقة العرب.

الشخصية الأدبية المصرية

تفاعل الأدب المصرى مع ذات مبدعه وتعبيره عن واقعه الاجتماعى والحضارى والإنسانى في حرص بالغ على التواصل مع المتلقى.

ولكل إقليم ذوقه الخاص كما قرَّر ابن خلدون ، وكان لمصر ذوقها الأدبي الخاص قائما على عروبته وحضارته الإسلامية فضلا عن شخصيته الخاصة، تقف وراءه إنجازات حضارية على كل المستويات السياسية والثقافية والحضارية.

يقول المقريزى فى مطلع موسوعته التاريخية ، "الخطط: "وكانت مصر هى مسقط رأسى، وملعبُ أترابى، ومجمعُ ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى وموطن خاصتى وعامتى فلا تهوى الأنفس غير ذكره".

وشدا عامة مصر بأدبها ، وكان منهم الحرفيون ، كالجزار وغيره، وتميز علماؤها بالسماحة، وناسها بالصبر ، ففى معمعة الحروب الصليبية كانت الفكاهة مميزة لهم صوَّرها كتاب "الفاشوش في حكم قراقوش".

وفى ظلمات العصر العثماني كان الشيخ الشربيني معبَرا عن شقاء الفلاحين المصريين بأسلوب ضاحك في "هز القحوف فى شرح قصيدة أبي شادوف".

وكان ابن تغري بردي مؤرخ النيل فى موسوعة : "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة".

وكانت عذوبة الشعر رائقة فى الغزل والتصوف، والروح المصرية رائعة فى الفكاهة.

وكان البديع– خاصة التورية – تعبيرا عن ذائقة فنية مؤثرة فى الأدب المصرى، مما يجعلنا نقول مع جمال حمدان إن دور مصر الحضارى لم يختف عبر العصور وإن اختلف من عصر إلى عصر، وأن مصر بحضارة نهر النيل ، كما قال "إميل لودفينج" مؤلف كتاب النيل حياة نهر هى مصدر الإنسانية فى الغرب ، ونقول إن الأدب المصري هو أدب الجمال الفني والصدق الإنساني.